كلمتا Domus و Familia

دراسة لمدلولاتهما من خلال النصوص الأدبية فى أواخر عصر الجمهورية و العصر الإمبراطورى

طلعت عبد الرازق زهران – رضا رسلان

تقديم

لفت نظرى أثناء فترات الدراسة فى الماجستير والدكتوراه، وأيضاً بعد ذلك أثناء التدريس للطلاب على مدى السنوات الماضية، وجود تداخل كبير بين كلمتى Familia و Domus ، وأن كلا منهما تتضمن معانى مختلفة، فرجعت إلى نصوص كبار الكتاب اللاتين، وقمت فى هذا البحث بجمع النصوص التى وردت فيها تلكم الكلمتان وتحليلها وتصنيفها بهدف الوصول إلى تحديد لمدلول كل كلمة على حدة، وقد استفدت من ملاحظات ومناقشات شفوية من د/ رضا رسلان الذى أمدنى ايضاً ببعض المعلومات استقاها من كتاب

Ernout, Domus, Fores et leuns substituts:

ومن كتاب B. D. Shaw : Tombstones and Roman Family Relations. وهى المعلومات التى أثبتها فى صفحة ١٠ حاشيه ١ من البحث ولذا رأيت أن أضيف اسمه إلى جانب اسمى فى هذا البحث.

كلمتا Familia و Domus كلمتان معروفتان فى اللغة اللاتينية، ولكل منهما مدلوله أو مدلولاته فى الحياة الأجتماعية لدى الرومان، وتتداخل مدلولات هاتين الكلمتين تداخلاً كبيراً بحيث يصعب علينا وضع تعريف محدد لكل منهما.

وسوف نحاول فى هذا البحث أن نرجع إلى كتابات الأدباء والمؤرخين البارزين لنصل إلى مدلول كل على حدة بقدر الإمكان . وقد نستخدم أحياناً كلمة " عائلة " للتعبير عن كلمة familia وكلمة " بيت " للتعبير عن كلمة Domus .

وقد ذكر أحد الكتاب أنه عند النظر فى قاموس Thesaurus Linguae Latinae نجد أنه قد تضمن ما يزيد على ١٢٠٠ استخدام لكلمة Domus وما يزيد على ٣٠٠ استخدام لكلمة familia فى كتابات مشاهير الأدباء فى أواخر العصر الجمهورى وفى أثناء العصر الامبراطورى .(١)

---

(1) Richard p. Saller, Personal Patronage under the Early Empire (Cambridge 1982) 61-64

راجع كذلك

J. L. Flandrin, Families in Former Times (Cambridge 1979)4 -10

وقد ذكر أن القواميس المتداولة اللاتينية والانجليزية غير دقيقة فى تحديد مدلول الكلمتين، وأن ال TLL و lewis and short وOLD لا تهتم بالتميز بين الأقارب من العصبة وأولئك من غير العصبة.

راجع أيضاً

M. Anderson, Approaches to the History of the Western Family,1500-1914 (London 1980) ch. 3, esp 41

J. Goody, the Development of the Family and Marriage in Europe (Cambridge 1983) App. I.

P. Bourdieu , Marriage Strategies as Strategies of Social Reproduction , in R. Foster and O.Ranum , eds, Family and Sociey (Baltimore 1976) 117-144

وبالتالى فالأمر أوسع من أن نقول أن كلمة familia معناها أسرة أو عائلة وكلمة Domus تعنى بيت.

أولا: مدلولات كلمة familia

يتفق أغلب النقاد مع الناقد Ulpian فى تحديده لمعانى كلمة familia حيث يبين أن هذه الكلمة تعبر عن Res من ناحية، وتعبر عن Personae " أشخاص " من ناحية أخرى (١)

والمقصود بال Res هنا أى الكيان المتوارث حسبما ورد فى عبارة من عبارات الألواح الإثنى عشر:

Agnatus proximus Familiam habeto (٢)

وهذا استخدام قانونى بحت، نادراً ما يرد فى ادب أواخر عصر الجمهورية وأوائل الإمبراطورية.

أما من الناحية الثانية، أى فيما يتعلق بال Personae " الأشخاص " فهو يشمل كل شخص يخضع لسلطة Potestas ال Paterfamilias وهم الأم mather familias ، والأبناء، والبنات، والأولاد بالتبنى، والأحفاد، والحفيدات. وهؤلاء فى الحقيقة هم sui heredes أى الورثة الذين يستحقون حصصاً متساوية لكل منهم فى الميراث الشرعى من ال Paterfamilias "كبير العائلة"

ومن الجدير بالذكر أن Ulpian يذكر أن الصبى pupillus ، فى أطار هذا التحديد، يمكن أن يصبح Pater familias عندما يحصل على dominium in domo .

وضع الزوجة:

شاب وضع الزوجة غموض ما، فطالما كانت الزيجات تتم بطريقة شرعية manus، فإن

---

(1) Digest 50 .16.195. 1-4

(2) XII tables 5. 4.

المرأة تدخل فى سلطة زوجها،وتصبح عضواً اساسياً فى العائلة (١)، أما اذا كان الزوج حراً فهى تظل دائماً تنتمى إلى " عائلة " أبيها. (٢)

أن غموض وضع المرأة فى " العائلة" يظهر خارج الأطار القانونى، حيث تعتبر الزوجة من حين لأخر داخل العائلة، مثال ذلك ما ذكره شيشرون (٣) أن كلوديا Cludia قد صارت ضمن familia Clarissima،وهى عائلة Metelli بعد أن تزوجت من أحد أفرادها، فى الوقت الذى لاتزال تعد فرداً فى ال familia Claudia

هنا نلاحظ أن كلوديا تنتمي إلى أسرتين فى وقت واحد ولكن ليس لدينا أمثلة أخرى. بل كانت الزوجة فى أغلب الأحوال تعامل على أنها فرد فى عائلة أبيها، ولدينا مثال على ذلك : فأن livia لم تصبح فرداً فى familia julia بعد زواجها من اكتافيان، وأنما صارت كذلك عن طريق التبنى بعد وفاته.(٤) وثمة أمثلة أخرى من هذا القبيل. (٥)

---

(1) فيما يخص التطور من الزواج ال manus إلى الزواج الحر

أنظر.

A. Watson , the Law of Persons in the later Roman Republic (Oxford 1967) 29 ff.

B. D. Shaw R. P. saller . Close - Kin Marriage in Roman Society? man 19 (1984) 432-434.

(2) D. Herlihy . the Making of the Mediaeval Family Symmetry. Structure. and Sentiment," Journal of Family History 8 (1983)116-130

(3) Cicero. Pro Caelio , 33 .

(4)Tacitus , Annales. 6. 51.

(5) Ibid 12. 1, and 15.22

Seneca Cons ad Marciam 16. 3.

ولذا لجأ الرومان إلى استخدام كلمة domus بدلاً من كلمة familia للتعبير عن الكيان الذى يضم الزوجة (١) ، أى أن ال familia قد لا تشمل الزوجة، أما ال domus فهى تشملها بلا خلاف نعلمه.

* يرى Ulpian أن كلمة familia تشمل العصبات أى الأفراد المرتبطين بقرابة الدم من جهة الأب، أى الأسرة السابقة بالأضافة إلى الأعمام، وأبناء الأعمام، والعمات دون أولادهن.

وفى الحقيقة أن هذا الرأى لا يمكن التسليم به هكذا على إطلاقه (٢) فلدينا أمثلة تطعن إلى حد ما فى هذا الراى، وهى أمثلة تذكر أفراداً ليسوا من العصبة:

أولها: فى فرونتو حيث كتب إلى زوج أبنته Aufidius Victorinus ، وهو ضابط رومانى أرسل إلى ألمانيا فى عهد ماركوس أوريليوس، يقول له إنه بفضل الآلهة سوف تكبر nostra familia ويصبح فيها liberi و nepotes (٣)

وهنا نلاحظ أن فرونتو قد أعتبر زوج أبنته من العائلة وكذلك الابناء والأحفاد ولعل فرونتو قد سيطرت عليه عاطفته الجارفة وحداه الأمل أن ابنته Gratia ، التى لم يتبقى له غيرها ، تنجب له أحفاداً.

ولعل حالة فرونتو هذه تشير إلى وجود رغبة متزايدة فى أفراد الطبقة الأستقراطية أن ترى لها ذريات باقية ومستمرة من خلال البنات وأبنائهن مثلما هو الحال مع البنين وأبنائهم(٤)

المثال الثانى:

فى سويتونيوس، وهو يكتب عن تيبريوس ،فيقول:

---

(1) D. Herlihy , op cit. P. 122.

(٢) يلاحظ أن Tll والقواميس اللاتينية ـ الإنجليزية المعروفة تذكر ال familia فيما يشمل الأقارب من العصبة ومن غيرها دون تمييز .

(3) Fronto , Ad Amicos 1.12.

(٤) وأن كان الأنسب فى مثال هذه الحالة استخدام كلمة domus بدلاً من familia

insertus est et liviorum familiae adoptato in eam materno avo. (Tib.3)

وهنا نرى سويتونيوس يعتبر تيبريوس قد صار فرداً فى عائلة livia ، وهذا ينقض أيضاً نظرية العصبة (١)

المثال الثالث:

عندما تعرض Deiotarus ملك Galatia الغربية للاضطهاد والظلم من جانب زوج ابنته، نرى شيشرون يتحدث عن زوج الإبنة هذا على أنه فرد ينتمى إلى عائلة أبيه التى تفترق تماماً عن عائلة جده لأمه (٢)

المثال الرابع:

من شيشرون أيضا حين يتعرض بالهجوم والنقد العنيف لبيسو، نراه يتجنب تماماً التعرض لعائلة بيسو بالأهانة أو اللوم ، (وعائلة Frugi وهى عائلة أصيلة عميقة الجذور) ، ونراه يقول إن الإعوجاج والإنحراف فى شخص بيسو يرجع إلى عرق ظالم من عائلة أمه maternum genus : (٣)

المثال الخامس:

عندما يتحدث شيشرون عن الانحرافات التى فعلتها أم كلوينيتيوس، يذكر أنها كانت

---

(١) يتحدث تاكيتوس عن تيبريوس (Ann . 6. 51)

Pater ei Nero et utrimque origo gentis Claudiae, quamquam mater in liviam et mox juliam familiam adoptionibus tansierit.

بمعنى أن تبنيات أمه ،وتبنيات جده لأنه لم يؤثر على عضوية تيبريوس فى gens claudia

(2) Cic. Pro Deiotaro .30

(3) Ibid. Pro Sestio 21, In Pis .53.

dedecus على كل من عائلته ، وعلى ذوى قرابة من جهة الأم cognatio.(١)

هذه الأمثلة السابقة تطعن إلى حدما فى نظرية Ulipian ، بالنسبة لمسألة العصبة ، ومع ذلك فأن أغلب المؤلفين الرومان ويتفقون على أنه من الواضح أن liberi feminarum لم يكونوا ينتسبون إلى عائلات أمهاتهم بل كانوا ينتسبون familiam patris (٢)

وأن اتسع لفظ familia فى زمن جستنيان ليشمل الأقارب من غير العصبة خصوصاً زوج الإبنة وزوجة الإبن. (٣)

* أحياناً يقترب معنى كلمة familia من كلمة gens "القبيلة" بل أحياناً يكاد يكون مرادفاً لها، وأحياناً أخرى يكون الفرق بينهما ظاهراً كبيراً. (٤)

ومن المعلوم أن أفراد القبيلة كانوا يرتبطون عادة بال nomen المعروف لها، بينما هم فى العائلة يرتبطون بال Cognomen.

إننا نرى familia تستخدم مرادف ال gens كما فى اشارات إلى familia Aemilia أو familia fabia فى تاكيتوس وفاليريوس مكسيموس وليفيوس (٥) وبل نرى شيشرون كثيراً ما يستخدم الكلمتين دون أن نستطيع التميز بينهما، فعلى سبيل المثال عندما يشير فى خطبته pro Sacuro إلى ال dignitas التى تتميز بها gens Sacuri و كذلك familia sua و كذلك nomen suum نتساءل إلى أى مدى تختلف الكلمات الثلاث عن بعضها البعض،

---

(1) Cic. Pro Cluentio. 16

(2) R. P. saller .op. cit .

(3) C J 6.38.5.pr.1

(4) Pauli festus . 94

وثمة أمثلة مشابهة فى Suet. jul. 6.1, Val. max. 1.1.17 Nero101, Galba 3.1

(5) Tac. Ann. 6.27; val. Max . 4 1. 5, 5. 2. 4, 5. 6. 4 and Livy 6. 40.3

و قد لانستطيع أن نجيب، ولكن لاريب أن شيشرون يتحدث إلى سامعيه وهو واثق أن التمييز بين هذه الثلاثة معلوم ومفهوم لديهم قطعاً. (١)

*كان استمرار familia، واسمها ال nomen فى حد ذاته، أمراً له أهمية، ومن ثم كان الرومان ينظرون إلى الذرية وكثرة النسل علىأنها شئ يدل على العزة والوجاهة، فنرى سينيكا يصف أحد الأباء بانه beneficium لأبيه، لأنه سوف يسهم فى استمرارية البيت والعائلة.

domus ac familiae perpetuitas(٢)

وكلك نرى أغسطس يغدق على M. Hortalus مبلغاً ضخماً من المال ليتزوج وينجب اولاداً لتصبح هناك عائلة عظيمة الشهرة Clarissima familia هى ال Hortensii.(٣)

ونرى كذلك أفراداً من الطبقات الأرستقراطية الغنية يتبنون ابناءاً فى اوائل سن الشباب ، ويشترطون عليهم أتخاذ ال nomen الخاص بهم ليصبحوا ورثة لهم. (٤)

* النقطة الأخيرة فيما يتعلق بالعائلة، أننا لابد أن نفرق بين مركز عائلة ما مشهورة بالعراقة والشرف، وبين ممارسات بعض أفرادها، ومما يثبت ذلك :

١) أن فاليريوس مكسيموس يذكر أن الكنسور ميتيللوس Metellus فى عام ١٣١ق.م قد أصابته الدهشة الشديدة ، فما كان يتوقع قط أن يتقدم إليه أحد بسجل يثبت أنه من نسل تيبريوس جراكوس، وعبّر عن دهشته بقوله أن أبناء جراكوس قد ماتوا جميعاً ولم يبق منهم

---

(١) نجد مثال ذلك أيضاً فى شيشرون وكذلك فى :

Verr. 2.2. 51,Pro Murena 12, and Pro ligario 20

(2) Seneca. Ben. 3. 33.4

(3) Tac. Ann. 2. 37.

(4) Pliny. Ep. 8.18.

أحد على قيد الحياة (١)

ومع ذلك فقد استشعر ميتلليوس أن واجبه يحتم عليه أن يحمى شرف عائلة جراكوس رغم موت تيبريوس وأبنائه.

٢) يذكر تاكيتوس أنه تم التخطيط لتزويج ابن كلوديوس من ابنة سيجانوس ومن ثم فان سيجانوس قد يشارك بالأحفاد مع عائلة دروسوس Cum familia Drusorum مما سيتسبب فى الإساءة لشرف العائلة ونبلها(٢)

من كل ما مضى نخلص إلى أن كلمة familia كان تعنى:

١- إما أفراد تربطهم رابطة الدم والمصاهرة.

٢- أو أفراد فى حقيقتهم من أصل أو أب واحد.

٣- أو أفراد يعيشون فى بيت وأحد ومعهم العبيد والأتباع.

ثانيا: مدلولات كلمة Domus

لا شك أن كلمة domus كانت أوسع استخداماً وتشمل مجالاً اكبر بكثير من كلمة familia ، أحياناً كانت تستخدم كمرادف لكلمة familia بحيث لا نكاد نرى بينهما فارق يذكر، كما سنرى.

ويبدو أن الاستخدام الرئيسى للكلمة كان يقصد البيت بذاته كبناء ، ويقصد كذلك أهل البيت فيما يشمل الأسرة والعبيد ، ومجموعة الأقارب الواسعة التى تشمل الأقارب من العصبة ومن غير العصبة، والأسلاف والذرية.

---

(1) Pliny. HN 35. 7.

(2) Tac. Ann. 4.7

والاستخدام الشائع أنه هو النطاق الذى يمارس فيه dominus نفوذه.(١)

ولدينا كثير من النصوص تدعم هذا الرأى من شيشرون،فاليريوس مكسيموس، كولوميللا، سينيكا، وكوينتيليان وبلينى و تاكيتوس وسويتونيوس .(٢)

* نقول أن كلمة domus كانت اوسع استخداماً من familia ، فتشمل الزوج - بغير خلاف - والأولاد والأخرين الموجودين فى المنزل، فنجد سينيكا ينحى باللائمة على الرجل الذى يصرخ مولولاً فقدان ال libertas فى respublica بينما هو يلغيها تماماً فى بيته فيحظر على أى فرد - سواء كان من عبيده، أو زوجته، أو أبنائه أو التابعين - أن يناقشه أو يرد علية أمره. (٣)

وهذا المثال يوضح أن ال domus كان بالفعل اوسع من familia ،فهو يشمل مجموعة أوسع يكرها شيشرون بقوله domus tota فى ختام رسالته لصديقه أتيكوس قائلاً:

domus te nostratota salutat (٤)

---

(1) Ernout, domus . fores et leurs substituts , Rev .phil 36 (1932)304.

B D. Show : Tombstones and Roman family Relations : J RS 124 .(1984).

(2) Cicero Cat. 4.12, Verr. 2.5. 80. ,Pro Caelio 60, Pro Milone 64,Phil. 2. 91; Val. Max. 5. 7. 3, Columella. De r.r.4.3.1 ; Seneca. De cons . 12.1, Ep. Mor . 41.7 (Falilia fomosa et domus pulchra) ; Quint. Decl. 337 , p. 325 ; Pliny Ep. 7.27; Tac. Ann. 13.18,15.38,41,43,50,52, Hist. 3.33 ; Suet. Aug. 5,72.1 , Cal.22.4, Nero 16.1 , Dom.1.1.

(3) De ira 3.35.I .

(4) Ad Att. 4.12

M. Flory , "Family in Familia: Kinship and Community in Slavery" ,

A J A H 3 (1978) 78 - 95 .

ونرى بلينيوس يركز كثيرا فى خطاباته على أن كلمة بيت تتضمن جميع الأقارب من جهة العصبة ومن غيرها، ففى خطابه الذى أرسله إلى تراجان نراه يشكره على أنه ضم Caelius Clemens إلى حاشيته، وهذا الرجل هو أحد أقارب زوجة بلينى السابقة، وكان بلينى يعتبرجميع ذوى القربى ، بعدوا أو قربوا ، جزءا من sua domus فيستحقون دعمه ومساعدته ، وقد عبر عن عميق سروره لأن تراجان قد شمل برعايته وفضله كل أفراد بيته (١) .

وبالمثل نجد سينيكا يذكر قيصر على أنه فرد فى "بيت" بومبى ، زوج ابنته (٢) ونجد تاكيتوس يعتبر نفسه عضوا فى بيت أجريكو لأنه تزوج من ابنة أجريكولا (٣) . وذكر تاكيتوس أن كلا من Otho و Vitellius قد تجنب الإساءة إلى بيت الآخر ، باعتبار أن شقيق Otho وابن أخيه فردان فيه (٤) .

وكانت كلمة الـ domus تتضمن حتى القرابات البعيدة جدا ، ونجد مثالاً على ذلك أن تيبريوس يمنح Acmilius lepidus جزءاً من الميراث الذى تركته Lepida وكانت درجة قرابته لها تتعدى الدرجة السادسة ، وكلمات تاكيتوس هنا توحى بأن الـ cognomen الشائع كان الدليل الوحيد على أن ليبيدوس ينتمى لهذا البيت (٥) .

كذلك كان من المعلوم أن جميع أقارب الإمبراطور من كل جهة يعتبرون من domus Caesarum ، وهذا بلينى يمتدح نيرفا لأنه – على عكس جميع من سبقه – لم يقصر بحثه عمن يخلفه intra domum (٦) .

---

(1) Pliny. Ep. 10.51 .

(2) Seneca. Ben. 5.16.4 .

(3) Tac. Agr. 46 .

(4) Tac. Hist. 1.75, 2.48 .

(5) Tac. Ann. 2.48 .

(6) Pliny. Paneg. 7.5 .

ومما لاشك فيه أن الـ البيت الإمبراطورى كان أوسع من العائلة الإمبراطورية ، وهذا ما يؤكده تاكيتوس حين يقرر أن تيبريوس قد صار ضمن الـ domus Augusti أولاً كربيب privignus حين تزوج أوكتافيان أمه (١) ، ولم يصبح فرداً فى العائلة إلا عن طريق التبنى .

وقد اتسع نطاق الـ domus Caesarum حتى أنه كان يتضمن عدة domus بداخله ، خصوصا بعد تجربة أغسطس لدعم علاقات المصاهرة مع عائلات أرستقراطية بارزة ، فصار فى أوج العهد الإمبراطورى ثمة duae domus يشار إليهما كالتالى :

Claudia et Julia domus أو domus Juliorum Claudiorum

مع ملاحظة أن دائرة القرابة من غير العصبة قد اتسعت أبعد من ذلك (٢) .

وهذا سينيكا يقرر أنه كان بمقدور كلوديوس أن يعتبر أنطونيوس ، جده لأمه ، واحداً من الأسلاف فى nostra domo (٣) .

وكان جيرمانيكوس ، الذى كان واحداً من العائلة الإمبراطورية ، له بيته الخاص به المكون من زوجته أجريبينا وأولادهما وأحفادهما ، وهذا البيت كان تيبريوس عدوا لدودا له ، فقد راح يستعدى الرأى العام والعائلة الإمبراطورية ضد domus Germanici بعد موت جيرمانيكوس ، وقد عانى Titius Sabinus كثيراً فى محاولاته للصمود إزاء ذلك شعوراً بواجبه والتزاما بالوفاء تجاه بيت جيرمانيكوس ، وتعرض للمؤمرات والدسائس من جانب domus Caesarum . ومن وجهة النظر الشعبية كان مولد توأمى Drusus مصيبة أضيفت إلى مصائب بيت جيرمانيكوس رغم أنه كان جزءاً من البيت الإمبراطورى ذاته (٤)

---

(1) Tac. Ann. 6.51 قارن Ann. 6.8 and Suet. Aug. 25.1 .

(2) Tac. Hist, 1,16, Ann. 6.8 .; Suet , Aug, 25. 1 .

(3) Seneca , Cons . ad Polyb . 15.3 .

(4) Tac. Ann. 4.68 , 4.40 , 2.84

ومن الطريف أن تيبريوس شعر أنه مضطر فى نهاية الأمر إلى أن يختار خلفاً له من البيت الأمبراطورى،ولم يجد بداً من أن يختاره من بيت جيرمانيكوس وكان أن اختار Gaius (١)

وقد ظلت كلمة domus تستخدم للتعبير عن الأسرة الإمبراطورية فى الـ domus Flavia التى كانت تشمل شقيق فسباسيان وأبناءه (٢) ،و حسبما يقرر تاكيتوس ، فإن أحد الأسباب التى جعلت Mucianus يتنازل لفسباسيان ، أن لديه ابنين فى sua domus بما يعنى أن الأسرة الإمبراطورية سوف تبقى وتزدهر أكثر وأكثر (٣) .

والـ domus تعبر عن مجموعة أفراد من نسب واحد ، فعندما مات كل من Gaius و Lucius تسبب ذلك ترك أغسطس مع domus deserta ، فإن البيت الإمبراطورى قد فقد عضوين منه ، زد على ذلك أنهما كانا خليفين قويين فى بيت أغسطس ففقدتهما الأسرة الحاكمة(٤) .

* كانت الـ domus أيضا تعبر عن مجموعة من الأفراد أو الذرية أوسع مما فى كلمة familia ، ومثال ذلك ما رواه فرجيليوس فى الأينيدة ، وهو يحكى أسطورة نشأة روما ، أن الملك لاتينوس يرحب بزواج ابنته الوحيدة – فلم يكن له ابن – من أينياس ، ومن ثم نرى أن "البيت" يمكن أن تستمر من خلال أحفاده من ابنته ، أما كلمة "العائلة" فلا يمكن أن تستمر إلا من خلال التبنى (٥) .

وفى Ann. 6.24 دروسوس ابن جيرمانيكوس يدخل أسرته كله فى domus تيبريوس

(1) Tac. Ann. 4.1., 6.46 ; Suet. Cal. 13.

(2) Tac. Hist. 2.101, 3.75 .

(3) Ibid .2.77

(4) Seneca , Cons. ad Marciam 15.2 .

(5) Vergilius, Aen. 7.52 .

وهذا بلينيوس يكتب عن ابنة هلفيديوس Helvidius ، وهى آخر من بقى من أولاده ، على أنها الأمل فى استمرار eius domus (١) .

كذلك كان يمكن اعتبار أسلاف الأم أيضا جزءا من "البيت" ، فهذا سينيكا ، يقارن موت والد Marcia وجدها بموت ابنها ، فتأتى روح أبيها لتواسيها وتقول لها أن وفاة ابنها كانت أهون الأحزان والمصائب فى "بيتنا" (٢) .

* كانت كلمة "البيت" أحيانا تقتصر على مجموعة ضيقة من الأقارب الأحياء ، كالأشقاء فقط ، ومثال ذلك أننا نجد سينيكا ، فى مقالته التى وجهها إلى بوليبيوس ، يهاجم الـ Fortuna لأنها دمرت "بيت الشابين الخيرين optimum adulescentium domum" أى بوليبيوس وأخيه الأصغر (٣) .

ولدينا مثال آخر من بلينيوس حيث نراه فى خطابه إلى Minicius Fundanus بشأن باسوس ، يصف والد باسوس ، وهو صهره ، ومعه ابن أخ له بأنهما يشكلان "بيت عديد الأفراد numerosam domum (٤) ونراه فى موضع آخر يصف Sextus Clarus بأنه شاب يتميز بالفضيلة والشجاعة هو وكل بيته Cum tota domo يخص منها والد كلاروس وخاله الذى سيصير والياً بريتورياً فيما بعد (٥) .

Junuis Mauricus و عندما طلب من بلينيوس أن يرشح له زوجاً لبنت أخيه اليتيمة أشار عليه بلينيوس بأن يزوجها من Acilianus بسبب ما يتميز به كل أهل بيته

---

(1) Pliny, Ep. 4.21.3 .

(2) Seneca, Consolatio, ad Marciam 26.3

(3) Ibid, 3.4 .

(4) Pliny . Ep. 4.15.4 .

(5) Ibid 2.9.3 .

tota sua domusمن فضائل ، وهم أبوه وجدته وخاله (١) .

و لا بد أن نعرف أن العتقاء والعبيد كانوا يعتبرون أفراداً أساسيين فى "البيت" ، وهذا ذكره كبار الكتاب اللاتين: شيشرون وسينيكا وبلينيوس ، حيث "البيت" فى تصورهم هو صورة مصغرة للدولة Respublica بما فيها من عبيد (٢) .

وكما قلنا آنفا ، فإن كلمة الـ domus تستخدم لدى بعض الكتاب مرادفة تماما لكلمة familia، فتاره تستخدم ويقصد بها الأسرة الصغيرة (الأب والأم والأولاد) ، ومثال ذلك :

(١) فى أوفيديوس حيث يصور الربة كيريس – أثناء طوافها فى البلاد حزنا على ابنتها بروسربينى التى اختطفها ملك الموت ، تدخل كوخا متواضعاً لرجل يسمى كيليوس ، ثم قامت بعلاج ابنه الصغير بعد أن أشرف على الموت ، فلما شفى ، حدث أن : "عمت السعادة البيت كله tota domus laeta est" (٣) وهنا لاشك أن كلمة بيت تعنى الأسرة فقط .

(٢) يتحدث شيشرون عن Roscius ، وأن له بيتا يتألف من Uxor زوجة وأولاد liberique فى أومبريا (٤) .

وتارة أخرى تترادف الكلمتان تماما ، فعلى سبيل المثال :

(١) نرى تاكيتوس فى وصفه للفاصل ، الذى يطلب فيه M. Hortalus المال من السناتو ويتوسل إليهم فى ذلك، يستخدم عبارة بيت هورتنسيوس أو عائلة هورتنسيوس دون فارق أو تمييز بينهما (٥) .

---

(1) Pliny , Op.Cit1.14.6 .

(2) Cicero , Ad fam. 13.23.1 , 13.46 ; Seneca Ep : Mor. 47. 4 ; Pliny , Ep. 8. 14. 16.

(3) Ovid . Fasti . 4.543 f.

(4) Cicero . Rosc . Amer . 96 .

(5) Tacitus , Ann . 2.37 66 .

(٢) ونرى فاليريوس مكسيموس يذكر أن ماسينيسا ، المعروف بإخلاصه لعائلة كورنيليا ، قد أوصى زوجته وأولاده أن يحافظوا على استمرار علاقتهم "ببيت سكيبيو" (١)

(٣) ونرى تاكيتوس في مواضع يقدم على استبدال كلمة "بيت" بكلمة "عائلة" دون أدنى تأثير أو تغيير في المعنى(٢) .

وقد ذكرنا آنفاً مثالاً آخر من سينيكا يصف أحد الأبناء بأنه سيسهم في استمرار للبيت والعائلة (٣) .

* إن بقاء واستمرار الـ domus لم يكن يعتمد على وجود أولاد فحسب ، بل لابد من وجود أملاك وأموال تحافظ على الوجاهة الإجتماعية ، ولذا فإن ارتباط كلمة domus بالذرية لم ينفصل قط عن ارتباطها بالميراث والأموال . وكان من أهم مسئوليات الإبن – بعد وفاة أبيه هي أن يحافظ على الـ domus in integro statu (٤) .

ونجد أبوليوس في مؤلفه (* Apologia , 76) يتهم خصمه Rufinus بأنه بدد وأضاع الميراث وترك "بيتا منهكا ومليئا بالأطفال domus exhausta et plena liberis" ومن المعلوم أن البيت لا يمكن أن يصير "منهكا exhausta" إلا إذا كانت الموارد والأموال توشك على النضوب والنفاد ، وهذا هو الذي حدا بـ L.Volusius أن يجتهد غاية الإجتهاد في كنز أموال هائلة دعما لبيته (٥) .

---

(1) Val. max . 5.2 ext. 4 .

(2) Tac. Hist . 3.66 ; Ann . 2.48 , 3.24 .

(3) راجع حاشية (١) ص ٨

(4) Sensca . Cons . ad Marciam 26 . 2 ;

قارن Tac . Ann . 15.1

(5) Tac . Ann . 3.30 .

* و بينما كانت السمة الأساسية للسياسة فى العصر الجمهورى هما التركيز على الـ familia حيث كانت شهرة الـ nomen لرجل ما ، من خلال الـ familia هى الأصل فى ضمان سيرة سياسية ناجحة (١) نجد أن الـ domus فى العهد الامبراطورى صارت هى المعيار الأفضل . فالأسر النبيلة الشهيرة بدأت تختفى لتحل محلها أسر أخرى صاعدة ، وكان هذا الخط يسير مسرعاً ، ولم يعد أعضاء السناتو يتفاخرون كثيراً بأنهم من ذرية من عصبة شهيرة ، ولم تعد هناك الحاجة ذاتها للـ nomen حيث لم يعد لذكره أو التعرف عليه فى الإجتماعات حاجة ظاهرة أو فائدة تذكر ، زد على ذلك أن قيمة الـ nomina العظيمة قد تلاشت بعد ما راح مواطنون جدد يتخذون لأنفسهم هذه الأسماء . وصارت الأغلبية الهائلة من الأسر السناتورية البارزة فى ذلك الوقت تتباهى بالبارزين من ذوى القربى سواء من العصبة أو من غيرها . وقد ظهر ذلك بصورة واضحة فى التغير الذى لحق بالتسميات فبدلاً من أن تستمد من الـ nomen والـ cognomen المرتبطين بالعصبة فى العصر الجمهورى ، تحولت إلى الأسماء الطويلة المستمدة من الأسلاف من جهة الأم أو الأب على السواء فى القرن الثانى الميلادى ، فمثلا نجد Gn. Dolabella ينجب ابنا من زوجته Petronia فيطلقان عليه اسم Ser. Dolabella Petronianus ، ونجد L. Nonius Asprenas وزوجته Calpurnia يسميان ابنهما Nonius Asprenas Calpurnius ونجد الإمبراطور Galba يضيف إلى اسمه اسم livia Ocellina زوجة أبيه ، فيصير اسمه L. livius Ocella Ser. Sulpicuis Galba (٢) ،

---

(1) T. P. Wiseman . New Men in the Roman Senate , 139 B. C - 14 A. D. (Oxford 1971) 102 ff .

Also . K. Hopkins , Death and Renewal (Cambridge 1983) 36 ff .

(2) Idem

see also Y. Thomas , "Mariages endogamiques a' Rome . Patrimoine , pouvoir et parente' depuis l'epoque archaique , "RD 58 (1980) 362ff.

* كان البيت ، كبناء وموقع وحجم وجمال دليلاً على الجاه والمكانة ، وكان مما يشين الرجل مهما كان مركزه ألا يكون له بيت ، أو أن يعرض بيته للإيجار .

(١) فمن بين الأمور التى سخر فيها شيشرون من أنطونيوس ، أنه لم يمتلك "بيتا قط حتى قبل مصادرات قيصر عندما كان لكل شخص تقريبا منزله الخاص (١)

(٢) و كان مما يشين فيتيللوس ويحط من شأنه أنه قام بتأجير بيته عندما ذهب الى ألمانيا ضابطا (٢) .

* وقد تضافرت عدة عوامل دينية وسياسية واجتماعية معاً فى إظهار قيمة الـ domus كرمز له قيمته ووجاهته لدى الرومان :

فبطبيعة الحال كان يوجد بالبيت aura مقدسة بها الـ dii Penates وهى الأشياء التى أخذت تتلاشى حتى اختفت تماماً فى الأزمنة اللاحقة ، وقد رفض شيشرون أن يصدق أن الربة libertas كانت قد طلبت من كلوديوس أن يبنى لها معبداً فى موقع بيته (أى شيشرون) عندما كان فى المنفى، وراح يتساءل :

هل كانت الـ Libertas تريد أن تطرد الـ dii Penates؟ قائلا :

Quid est sanctius , quid omni religione muntius quam domus unius cuiusque civium ?(٣)

وإذا رجعنا إلى كثير من الكتاب فسوف يتأكد لدينا أن ثمة اعتقادا عاماً فى

---

(1) Cicero . Phil . 2.48 .

ونجد سخرية مشابهة من بيسو كذلك فى In Pis 61

(2) Suet . Vit . 7 .

(3) Cicero , De domo sua , 108 .

قدسيةالبيت (١) وقد كان أسوأ ما ارتكبه جنود فيتلليوس فى عام ٦٩م هو قيامهم "بتلويث البيوت والمذابح بالدم: domus arasque cruore foedare" (٢)، فقد كان أمراً يستهجنه الرومان الذين كانوا يشعرون أن بيت الرجل هو ملجأه الأخير Perfugium sanctum (٣) .

وكانت قدسية البيت تجعله رمزاً يستثير عاطفة وحماس الجنود : فكان القادة يحرضونهم ويثيرون حميتهم ليقاتلوا من أجل Patria domusque "الوطن والبيوت" (٤) .

ونجد تاكيتوس يسخر من أولئك الذين سارعوا إلى تزيين بيوتهم بالغار تعبيرا عن فرحتهم بنجاة نيرون ، بعد اكتشاف مؤامرة بيسو وإحباطها ، فى نفس الوقت الذى كانوا يوارون أقاربهم وأصدقائهم الثرى ، وتعجب تاكيتوس من ذلك النفاق الواضح ، حيث الأحياء يزينون بيوتهم الخاصة بينما بيوت ذوى قرباهم تفور بالدماء(٥).

* كان أفراد الطبقة الأرستقراطية يهتمون بشجرة النسب ، فيحرصون على وضع الـ imagines "الصور الشخصية" فى الـ atrium مربوطة بخيوط أو وصلات فيما بينها تعبيرا عن شجرة النسب ، كما كانوا يحتفظون بسجلات لمنجزات أسلافهم فى حجرات خاصة كأنها أرشيف .

كذلك كانت أقواس النصر التى ترمز إلى معارك معينة يتم تعليقها خارج الـ domus وحول الـ limina. فقد ظل الـ domus الخاص رمزاً أساسيا يعبر عن مجد واستمرار شهرة الأسر العريقة من عصر الجمهورية ، وقد لاحظ بلينى أنها ظلت هكذا حتى بعد إندثار

---

(1) Val . Max . 5.6 , 9.1.6, 9.,15.5 ; Seneca . De Clem .1.15.3 ; Tac. Hist . 3.70 , Ann . 13.4 .

(2) Tac. Hist . 3.84 .

(3) Cicero Cat . 4.2 , Vatin . 22. De domo sua 109 .

(4) Tac . Hist . 1.29 .

(5) Tac . Ann . 15.71 .

الـ familiae الكبرى ، وذكر أن غنائم النصر لم يكن الجدد الذين يحلون مجل هذه الأسر يزيلونها أو يمسونها بسوء :

triumphabant etiam dominis mutatis aeternae domus (١) .

وبالنسبة للعائلات الكبرى كانت القيمة الرمزية للبيت تتلاشى إذا سقطت الـ imagines وتلفت . ولا أدل على ذلك من أن إحدى العقوبات التى قررها القانون الشديد المسمى lex Calpurnia de ambitu عام ٦٧ ق . م ، كانت تحريم إظهار وتعليق الـ imagines .

وقد حاول شيشرون فى دفاعه عن P. sulla أن يستدر عطف المحكمة ، فأخذ يركز على الحالة البائسة والمعاناة التى يمر بها سلا بعد ضياع suae imagines بعد إدانته وتطبيق هذه المادة عليه (٢) .

ولما كان الـ domus يعد رمزاً للشرف والعراقة بالنسبة للعائلة ، فلم يكن من الغريب أن الأسر القديمة قد استاءت من محدثى النعمة الذين راحوا يتسللون إلى البيوتات الكبرى ، وهذا شيشرون يعبر عن سخطه من محدثى النعمة هؤلاء الذين زعموا أنه ليس من حقه أن يسكن ضيعة كانت تخص كاتوللس من قبل ، وليس من حقه أن يبنى بيتاً على تل البلاتين (٣)

---

(1) Pliny . HN 35.7.

وقد لاحظ سوتيونيوس أن كثيراً من domus priscorum ducum قد أحرقتها النيران فى عهد نيرون(Nero 38.2).

(2) Cicero , Pro sulla 88 .

و عن هذا القانون و عن , ius imaginum انظر

Mommsen , Romische staatsrecht 1.442 f . and 492 , n . 3

(3) Ad Att. 4.5.2

see W.Allen , Jr., "Cicero House and libertas ; TAPA 75 . (1944) 3.

* مع دخول عائلات جديدة ضمن الأرستقراطية السناتورية فى العهد الإمبراطورى، قل عدد البيوتات التى كان بإمكانها أن تتباهى برباطها بالـ imagines ، ومن ثم تغيرت الأهمية الرمزية للتباهى بالـ domus شيئا ما ، وأصبحت الثروة والنفوذ هما الشئ الذى تتباهى به الأسر (١) . وهذا أبوليوس يتحدث عن عظمة الفيلسوف Crates المتمثلة فى الثروة الضخمة والأعداد الهائلة من العبيد عنده و "البيت"الفخم الممزدان بالزينات "domus amplo ornata vestibulo" (٢) .

* لقد كان أمراً حيوياً بالنسبة للأرستقراطى الرومانى أن يكون لديه منزل جميل يليق به لأنه كان عليه أن يجرى أغلب تعاملاته مع جمهوره هناك (٣) . وكانت مكانته الإجتماعية تظهر فى الحشود التى تأتيه فى الصباح ممن يحتاجون إلى مساعدته من أصدقائه وعملائه ، ومن هنا كان "البيت المزدحم domus frequentata" دلالة على الجاه والنفوذ فى الحياة العامة :

فهذا – مثلا – Aper الخطيب الرومانى يدعى أن إحدى ثمار الخطابة وفوائدها الجمة ذلك البيت الذى يغص برجال من ذوى المكانة من الطبقة الأستقراطية (٤) . وثمة أمثلة تظهر أن هذا الأمر كان شيئا معلوماً مسلماً به فى زمن كل من الجمهورية والعصر الإمبراطورى :

(١) فهذا شيشرون يفخر بضخامة المخازن والأقبية وفخامتها عنده كمؤشر على وجاهته ودليلاً على شعبيته الطاغية(٥) .

---

(1) K. Hopkins . op . cit . p. 36 ff

(2) T. P. Wiseman , New men in the Roman Senate , 139 BC - 19 AD (Oxford 1971) 102 ff . .

(3) L. Friedlaender , Roman Life and Manner under the Early Emire (London 1908) 1.207 - 209 .

(4) Tacitus , Dialogus . 6 .

(5) Cicero , Ad Atticum . 2.22.3 , Cf . 1.18.1 ,

(٢) كان خلو الـ domus الخاص بالمشرعين فى صقليه خلال حكم Verres دليلاً على فساد الأحوال العامة العامة خصوصاً أن الـ domus الخاص بزوجته كان يغص بالحشود التى جاءت على أمل الحصول على مميزات قانونية وتشريعات يطمحون إليها ، فصار لزاماً على رجال لهم مكانتهم أن يهينوا أنفسهم بالهذاب إلى بيت السيدة meretricis domus (١) .

(٣) كان domus سيجانوس ، قد ازدادات سطوته ومكانته كرجل من رجال الحاشية ، وكان بيته المزدحم domus frequentata يدل على تزايد سلطانه ومكانته ولذا نجد تاكتيوس يقرر أن الوالى البريتورى راح يستحث تيبريوس على أن يبعده عن روما حتى لا يرى مظاهر سطوة سيجانوس (٢).

(٤) يصور سينيكا مشهداً مؤلماً حيث كالليستوس يقف فى صف ضمن الحشود أمام أبواب كالليستوس ليقدم له تحياته واحترامه (٣) .

* كان الـ domus – بمعنى أهل البيت – هو بؤرة الشرف بالنسبة للرومان ، وكان شرف الـ paterfamilias يعتمد على قدرته على حماية أهل بيته ، وفى المقابل كانت فصيلة أهل البيت وحسن سلوكهم يساعدان فى إبراز جاهه وشرفه (٤) .

فهذا سينيكا يقول لنا أنه ، بعد اكتشاف مؤامرة كينا ، انتحى الإمبراطور بكينا جانبا ، وأسر إليه حديثا طويلاً أخذ يوبخه فيه ويعيره بأنه لم يستطع أن يحصل على السلطة الإمبراطورة ولم يفلح فى حماية sua domus (٥) .

---

(1) Cic. verres . 2.1. 120 , 137 .

(2) Tacitus , Ann . 4.41 .

(3) Seneca De ira 3.23.5 and 8 .

(4) J. Pitt - Rivers , The Fate of Shechem , or the Politics of sex (Cambridge 1977) , esp . ch . 2 .

(5) Seneca , De clem . 1.9.10 .

* و كانت عفة المرأة وفضيلتها شيئاً جديراً بالمديح يرفع من شأن البيت وأهل البيت : فهذه Livia وقد حافظت على "قدسية sanctitas" أهل بيتها ؛ بينما أهل بيت كل من فيريس وأنطونيوس قد جللهما العار (١) .

وكان السلوك المشين الذى يمس العفة يعد فى نظر القانون فساداً يسمح فيه للأب أن يقتل ابنته وعشيقها اذا ضبطهما فى بيته الخاص أو فى بيت ابنته ، كما كان مسموحاً للزوج أن يقتل عشيقاً ضعيف المكانة الإجتماعية إذا ضبطه فى منزل الزوجية (٢) .

ونجد فى شعر فاليريوس مكسيموس عن اسطورة اغتصاب Verginia أن والدها Verginius قد مضى إلى أقصى حد فى إهراق دم ابنته حتى أن sua domus قد تطهر تماما من أى دنس (٣) .

وهذا جوللوس أنطونيوس Jullus Antonius ينتهك حرمة بيت أغسطس (domum Augusti violasset) من خلال علاقته بجوليا ، وهذا سينيكا يتعرض للذم والتوبيخ من جانب Suillius لكونه عشيقا لإحدى نساء domus Germanici . وهذا Fabius Valens – قائد فيتيللوس – يفقد مركزه بسبب انتهاكه لحرمة بيوت مضيفيه (٤) .

ومما سبق نعلم مدى قدسية الـ domus وواجب حمايته وصون شرفه ، وأن عفة المرأة وعدم ارتكابها أى شئ يمس بشرف أهل بيتها كان أمراً له قيمته، ومن ثم نرى ابنة فونتيوس ، واسمها أجريبا Agrippa" يقع الاختيار عليها كعذراء فستية جديدة عام ١٩م ، وسبب فوزها :

---

(1) Tac. Ann . 5.1 , 14.22 , Cicero Verr . 2.4.83 , Phil . 3.35 .

(1) Pauli Senentiae 2.26.1 and 7 .

(2) Val. Max. 5.10.2 .

(3) Tac . Ann . 3.18 , 13.42 , Hist . 3.41 .

"Nam Agrippa discidio domum "أنها لم تفعل أى شئ يشين أهل بيتها قط" imminuerat" (١)

* ثمة مؤشر قوى أخير عن كيفية ارتباط المرء ارتباطا وثيقا بال domus، وهو أنه :

لم يكن كافيا فى عصر الجمهورية أن يقتصر عقاب أى أرستقراطى ، حامت حوله الشبهات بأنه خطط أو هدف إلى الاستيلاء على الحكم ، على القتل وحسب ، بل كان لابد من تدمير بيته تماما وتسويته بالأرض ، ويعدد لنا شيشرون وفاليريوس مكسيموس أمثلة كثيرة على هذا الأمر (٢) . وكان تدمير الـ domus يعنى إزالة جذور أسرة مرتكب الإثم تماما

ولم يكن الأمر يقتصر على نفيه وحده وإنما لابد من نفى جميع أهل بيته وذريته (٣) .

وكان ذلك أمراً مألوفاً فى زمن الجمهورية ، كذلك فى العهد الإمبراطورى رغم ظهور درجة من التفسخ فى العلاقة بين الذرية والـ domus ، وضعف قيمة الـ penates وعدم الاكتراث بوجودها ، فهذا سينيكا يتحدث عن إحدى الحالات التى ظهر فيها غضب الجمهور شديدا وتم حرق الـ domus تماما وتسويته بالأرض: "Totae cum stirpe omni erematae: domus" (٤) و شيشرون يقول لنا إن مصادرة بيت الرجل ثم تدميره لم يكن خسارة مادية وحسب ، بل كان عاراً وألما (٥) .

---

(1) Ibid . 2.86 .

(2) Cicero , De domo sua 101

Val. Maximus 6.3.1

وقد ذكر أسماء كل من Flaccus، M.Manlius، M.Vaccus، Sp. Cassius، Sp. Maelius L. Saturinus،

(3) Valerius Maximus , 6.3.1 .

(4) Seneca , De Ira (3.2 - 4)

(5) Cicero , De Domo sua (146) .

* فى الوقت الذى ظل فيه نفر من أعضاء الطبقة الأرستقراطية يفخرون بأسلافهم وبانتماءاتهم سواء للعائلة أو "للبيت" ، كان على الأسر الجديدة التى أصبح أفرادها أعضاء فى السناتو ، ان تجد مستويات أخرى للمركز الإجتماعى ، فكانت الثروة هى المعيار الأساسى التى يفخر بها هؤلاء ، والوسيلة التى يستطيعون بها إرضاء حشود تفد إليهم فى الصباح تبحث عن "أى فضل يجود به أهل البيت" "Quaestuosae domus gratia" (١)

لقد صار هناك واقع جديد فى العصر الأمبراطورى، فلم يعد الفخر بالعصبة أو ال Familia يجد قبولاً فى هذا الواقع الجديد (٢)، بل بدأت كلمة familia تفقد محتواها شيئا فشيئا

فهذا بلينيوس يستخفه السرور ويعرب عن إعجابه بمواهب الشاب Calpurnius Piso ويقول إنه سيكون أمراً محزنا "لو لم يعد لنبلائنا شئ جميل فى بيوتهم سوى صور أسلافهم

Nobiles nostri nihil in domibus suis pulchrum nisi imagines habeant" (٣)

ونتساءل فى نهاية هذا البحث هل كلمة familia كانت تعنى الأسرة ، أو العائلة ، أم العشيرة ، أم القبيلة ، أم الفخذ ، أم البطن ؟

لقد وجدنا نصوصاً تعبر عن ذلك كله ، ولعل كلمة "العائلة" هى الأقرب شيئا ما للتعبير عن مدلولها.

وهل كلمة domus كانت تعنى البيت ، أو أهل البيت ، أو العائلة ، أو الفئام ، أو القوم ؟

كانت النصوص السابقة التى سقناها تعبر عن ذلك كله ، ولعل كلمة "بيت" هى الأقرب شيئاً ما للتعبير عن مدلولها .

وإن كنا نفضل أن تبقى الكلمتان كما هما دون أن نلزم أنفسنا بإيجاد مرادف أو مصطلح لكل منهما فى لغتنا العربية .

---

(1) Seneca , De Const . 8.2 .

(2) R. P. Saller , op. cit . 65

(3) Pliny , Ep. 5 . 17.6 .